



الفرضية المقترحة لحل إشكالية النوم الحالم

إدراكنا الحسي. وبفضل هذه القوانين نسعى إلى العثور على طريقنا خلال تيه الوقائع الملاحظة، وإلى تنظيم، وفهم عالم انطباعاتنا الحسية، عن طريق صياغة تركيباتنا النظرية لتفسير الواقع، وإلقاء الضوء على انسجامه الباطني (٢).

تتألف عملية الاستقراء من ثلاثة محاور أساسية، تشمل الملاحظة والتجربة، ووضع الفروض، ثم البرهنة على صحة هذه الفروض وموضوعيتها، إن عصب المنهج التجريبي، هو الفرض، لأنه هو الذي يدعو إلى التجريب، فالفرض هو البذرة، والمنهج هو التربة التي تزدها بالأحوال الملائمة لنموها وازدهارها، وإعطاء خير الثمرات وفقا لطبيعتها.

والتجربة عبارة عن ملاحظة دقيقة للظاهرة، بعد تعديلها تعديلا محسوباً بعناية عن طريق التدخل في صنع بعض الظروف بما ينتج الحادثة، أو الظاهرة في بيئة تساعد على التحقق من صدق فرض طراً على عقولنا، قال كلود برنار (١٨١٣ - ١٨٨٨م) في كتابه «المدخل إلى الطب التجريبي»: «ينبغي بالضرورة أن نقوم بالتجريب، مع وجود فكرة متكونة من قبل. وعقل صاحب التجريب ينبغي أن يكون فعالاً، أعني أنه ينبغي أن يستجوب الطبيعة، ويوجه إليها الأسئلة في كل اتجاه، وفقاً لمختلف الفروض التي ترد عليها (٣).

من هنا يبدو واضحاً أن التجربة ليست سوى جهد مستبصر للباحث، يربط فيه الملاحظة بفرض يفسرها، لكي يعود ثانية فيغير من ظروفها بما يخدم الفرض في تبريره للواقعة المشاهدة في قانون عام.

وأما الفرض في معناه العام جداً، فهو تخمين عام، أو اقتراح من نتاج خلق خيال الباحث Creation of imagination الذي يطره لتفسير علة واقعة، أو مجموعة من الظواهر التي سبقت ملاحظتها وتجربتها، أو هو اقتراح مؤقت يهدف إلى فهم وتفسير الوقائع المشاهدة والمجربة قبل أن تصير هذه الوقائع دليلاً عليه، وبرهاناً على صدقه (٤).

لذا فنحن حين نضع فرضاً، إنما نقترح علة من مجموعة علل افتراضية، تكون الظواهر، أو الأشياء الملاحظة، أو موضوعات التجربة معلولات لها وآثاراً. وبذلك فإن الفرض العلمي يثير تجارب وملاحظات، يمكن الوصول منها إلى القانون، فالنظرية التي تفيد في تقديم تفسير، أو عدة تفسيرات تحيل الوقائع المبعثرة إلى وقائع مفسرة في إطار بناء فكري متناسق.

وخلاصة الكلام عن العلم

تعالى بحفظهما بعيداً عن ساحة التحريف والباطل، حيث تتجاوز المعرفة الإلهية مناهج البحث البشرية التي يلتصق ببشريتها الخطأ والقصور.

سنطرق في هذه الوقفة النقدية على باب محوريين أساسيين، في ميدان النوم والأحلام (الأول): حقيقة المراحل التي يمر بها النائم، (والثاني): بيان مصدر الأحلام لغرض إزالة إشكالية تفسير النوم الحالم لما يكتنفه من غموض وإيهام عندما يحاول تفسيره العاملون في مضمار علم النفس. من أجل هذا سنعتمد على تبني منهج مقارناً بين ما قاله العلم المعاصر بلغة المختبرات والأرقام، وما يحمله الخطاب الديني من إجابات توفر تربة ملائمة لنمو فرضيات أكثر نضوجاً تبرر هذه الظواهر بلغة علمية رصينة.

٢ - مناهج البحث العلمي المعاصر:

لعلم المعاصر غايتان أساسيتان، (الأولى) غاية تكمن وراء جميع أوجه الجهد، والفاعلية البشرية لتسجيل الوقائع، وتشكيل النظريات لتفسير المشاهدات، والتكهن بها، و(الثانية) ثرة الغاية الأولى، وهي استثمار المعرفة النظرية لتمكين الإنسان من السيطرة على مفردات الطبيعة، وتطويرها بما يخدم أغراضه (١).

والاستقراء يقود العقل إلى تعديل الحقائق المشاهدة وصولاً إلى قانون، أو مبدأ، أو قضية كلية تحكم الجزئيات التي تخضع إلى

والعلم المعاصر، بطبيعته، يستحوذ على مفاتيح مشكلات المعرفة وميادينها، ساعياً إلى إقصاء الخبرات الأخرى، كالمعرفة الدينية، ليوثها في مقام الأساطير عندما يمتلك مفتاحاً لباب موصد من أبوابها، غير أن الوقفة النقدية أمام الإجابات التي طرحها العلم الحديث لحل المشكلات المعرفية لدائرة النوم والأحلام تؤشر نحو ضرورة إشعال الأضواء الحمراء على درب الاتجاهات التفسيرية لهذه الظواهر، لكي لا يعتبرها الباحث المبتدئ، أو القارئ العادي - الذي لا يمتلك القدرة المتبصرة على نقد مناهج العلم الحديث وأدواته - فيتوهم بأن هذه الإجابات هي التفسير الوحيد، والأكثر قبولاً لظاهرتي النوم والأحلام، فيشرع بإلصاق تهمة القصور ببقية التفسيرات المطروحة، بحجة مجانبتها للموضعية العلمية، والدقة الصارمة للعلم، فيسارع إلى إلحاقها بدائرة الأساطير والخيالات الكاذبة للفكر البدائي.

إن المعرفة الدينية لازالت تمتلك خطاباً، وتأويلاً معرفياً للظواهر الكونية، لم يلق العلم المعاصر منه كل شيء، ومازالت تمتلك من الأسرار، والكلمات والتأويل، ما لم تبسح به بعد. إذن لازال الخطاب الديني قادراً على الكلام، والبوح بأسرار ثرية لمن ينقب بين ثناياه برفق، من أجل هذا أضحت عملية تأويله، ضرورة ينبغي أن تتكئ على محاولة بناء عقلانية جديدة، تستثمر الخطاب الإلهي، والسنة النبوية الصحيحة، اللذين تكفل الله

إن أهم ما تميزت به جل معطيات عصرنا الراهن هي امتلاك العلم الحديث الامكانية الكافية للولوج في معظم ميادين المعرفة البشرية، ففتح بذلك كثيراً من الأبواب الموصدة أمام العقل البشري، بيد أن باب النوم والأحلام قد بقي موصداً، حتى فترة قريبة، حيث بدأ العلماء يتلمسون طريقهم في متاهات هذا العلم الغامض، والذي لازال بكراً، وبحاجة إلى مزيد من الكشف والاستقصاء.

بقلم:

حسن مظفر الرزوي

المكتب الاستشاري العلمي -

كلية الحداية الجامعة -

الموصل - العراق

المعاصر، بأنه عملية استثمار ملاحظة منهجية، يقوم بها الباحث بصبر وأناة، لاقتراح تبرير يعلل حدوثها، بفرض يعاد اختباره في تجربة تحكم صياغة ظروفها، لكي تدرج في قانون عام يفسرها، لأن قوام كل معرفة علمية هو التعميم في قانون كلي، ولأنه بدون التعميم فإن عملية التنبؤ تغدو شبه مستحيلة (٥).

٣ - مَفَاتِيحُ أَبْوَابِ النُّوْمِ والأحلام في ميزان العلم المعاصر:

إن الإنسان، منذ كان قد التصقت ببشرته الأحلام، فكانت نافذة يطل من خلالها على عوالم جديدة، تصيبه بالدهشة تجاه ما يلمس فيها، وما تحمله في طياتها من نبوءات المستقبل المجهول. وإذا استبعدنا الفكر البدائي الأسطوري، نجد بأن ما طرح على طاوله تفسير عالم النور والأحلام قد انقسم إلى مدرستين أساسيتين: (المدرسة الأولى): تمثل تيار الأديان السماوية التي تعتبر الأحلام لديها منحة الهية للبشر من الخالق عز وجل، تحمل بين جنباتها النذارة والبطارة.

(المدرسة الثانية): وتنتشر على مساحة واسعة زمنيا وموضوعيا، كانت بداياتها منذ زمن أرسطو عندما ألقى الضوء على مصادر الحلم في رسالته الأولى، فكان الحلم موضوعا في دائرة الفلسفة، ثم تلقفه علماء النفس فسار جزءا من علمهم البكر، وأخيرا بات يدرس على ضوء النظريات البايولوجية في المختبرات، وقد انصبغ كل تفسير من تقاسير هذه المدرسة بالروح العلمية للعصر الذي ظهر فيه، مع ظهور تفسيرات جديدة تحاول البرهنة على تهافت سابقتها، حتى استقر الحلم أخيرا في أحضان المنظور البايولوجي الذي برزت بقية النظريات في اكتشافاته، إلا أن هذا لم يبلغ بقية التيارات التي لازالت تضع الفروض، وتصنع النظريات.

لقد كان ولوج الأحلام في دائرة المنظور البايولوجي مصادفة غير مقصودة، وقد حدث ذلك نتيجة ملاحظة ظاهرة فيزيولوجية أثناء دراسات اختبارية لظاهرة النوم وليس الأحلام، ففي عام (١٨٥٣) لاحظ الباحثان - في موضوع النوم - «أزرينسكي وكلايتمان» (٦) ظاهرة حركة العين السريعة - Rap- REM id Eye Movemnt - فامتد بحثهما من هذه الظاهرة لحركة العينين المصاحبة للأحلام ليشمل محاولة اكتشاف ظواهر أخرى تصاحب الأحلام، سواء كانت هذه الظواهر يمكن مراقبتها عيانا، أو باطنيا يمكن تسجيلها بوسائل الرصد والقياس.

كذلك كان لدراسة حركة الدماغ الكهربائية، أثنا النوم، فضلا كبير في القاء الضوء على فترات النوم الحاملة، مؤيدا الاكتشاف الأول لحركة العين السريعة (REM) وبذلك أوضحت هاتان الظاهرتان، في عصرنا الحالي، الدليل العلمي القاطع على وجود فترات محددة أثناء النوم، والتي تقتزن بالأحلام.

٣ - ١ مراتب النوم:

بات تخطيط حركة الدماغ الكهربائية، وحركة العين السريعة للنائم دليلا على وجود مرتبتين للنوم هما:

أ - النوم غير الحالم Synchronized Sleep
ب - النوم الحالم Paradoxical Sleep.

تشكل مرتبة النوم غير الحالم الفترات الأطول زمنا من النوم، وهي في مجموعها تشغل حوالي أكثر من نصف زمان النوم بأجمعه. وقد أظهرت البحوث في المختبرات بأن فترة النوم غير الحالم تتوالى مع فترات النوم الحالم، بصورة رتيبة، ويتكرر ذلك من ٤ إلى ٦ دورات في نوم الليلة الواحدة كدالة لفترة النوم، وقد لوحظ بأن النشاطات الفيزيولوجية في هذه المرحلة إما تقل عما كانت عليه أثناء فترة النوم الحالم، أو أنها قد تنعدم، مثل حركة العينين السريعة، ونشاط عضلات الأذن الوسطى، وارتعاش عضلات الوجه والأطراف.

أما مرتبة النوم الحالم فتتألف من الفترات الزمنية التي تحدث فيها الأحلام، وقد سميت هذه الفترات بالنوم الحالم بناء على نتائج الأبحاث التي أجريت على النائمين، والتي أظهرت بأن إفاقة الفرد من نومه خلال فترات ذات خصائص فيزيولوجية مميزة بأنه كان يحلم في معظم الحالات. ليست الأحلام العنصر الوحيد الذي يسود الفترات الحاملة، فهناك نشاطات أخرى تحدث خلالها، وهي نشاطات إما

فريدة ومميزة لها دون غيرها من فترات النوم غير الحالم، أو أنها تنشط بصورة أكثر وضوحا خلال فترة الحلم، ويمكن إجمال أهم الفعاليات التي تتزامن مع هذه المرحلة: بالأحلام، وحركة العينين السريعة، وحركة الدماغ الكهربائية، وحركة عضلات الأذن الوسطى، وشدة التوتر العضلي والانفعالات الجسمية.

٤ - العقبات المعرفية أمام تفسير النوم الحالم:

رغم تطور تقنيات مختبرات العلم المعاصر المخصصة لدراسة ماهية الأحلام ومواردها في تربة النوم الحالم، أنه لازال هناك الكثير من الظواهر تستغل على الفهم، وبحاجة إلى تبرير. وسنحاول أن نلخص هذه العقبات بما يلي:

١ - توفر الإمكانيات التقنية لرصد جميع ظواهر فترة النوم الحالم، سواء كانت ظواهر بايولوجية، أو خلوية، أو سلوكية، ماعدا الأحلام، التي لا يمكن فصلها عن غيرها من الظواهر البايولوجية المصاحبة لها، لذا لازال متعذرا على الباحثين إقامة الدليل القاطع على هدف كل ظاهرة من ظواهر النوم الحاملة على حدة، أو على البرهنة فيما إذا كانت هذه الظواهر البايولوجية ضرورية لحدوث الأحلام، أو على العكس بأن تجربة الأحلام هي ضرورة لازمة لقيام هذه الظواهر المتزامنة معها؟

٢ - خلال فترة النوم الحاملة، فإن الحركة الدماغية تبدو أقرب ماتكون للحركة الدماغية أثناء اليقظة، وهي عادة مزيج من حركات ألفا الطبيعية، ومن حركات بيتا البطيئة نسبيا. ولهذا تعتبر هذه الفترات حالات من النوم غير العميق، وهو اكتشاف يتعارض مع ما كان يظن سابقا من أن الأحلام تحدث في أعماق درجات النوم، بينما تتسم الأخيرة بحركات دماغية بطيئة، مع خلوها من الأحلام.

٣ - عند قياس درجة التوتر العضلي عند النوم، وقف الباحثون على حقيقة تناقص، هذا التوتر بشكل ملحوظ أثناء فترات النوم الحالم، مع تزامن هذه الظاهرة مع كل من: حركة العين السريعة، الحركة الكهربائية للدماغ، حركات الأذن الوسطى، كما تبين بأن الارتعاش العضلي هو أكثر درجات الارتعاش شدة بالمقارنة مع ما يحدث أثناء النوم غير الحالم، أو أثناء اليقظة، أي بمعنى آخر هناك تناقض في المفاهيم؛ فالنوم الحالم هو أكثر درجات النوم سطحية وقربا لحالة اليقظة، بينما هو في نفس الوقت أكثر درجات النوم من حيث الارتعاش العضلي؛ من أجل هذا أطلق عليه اصطلاح النوم المفارق Paradoxical Sleep.

٤ - تحدث في فترة النوم الحالم، زيادة ملحوظة في نشاط الجهاز العصبي، الذاتي، مقترنة مع زيادة مماثلة في إفرازات الغدة الكظرية (الأدرينال)، وهو تغيير لا مثيل له في حالات النوم غير الحالم، أو حالات اليقظة (٧).

٥ - حالة الوعي تكون مفقودة أثناء النوم غير الحالم، أما أثناء النوم الحالم، فإن الفرد يكون في حالة وعي، فهو يراقب الأشياء، ويشارك فيها، ويظهر الانفعالات العاطفية، وكل ذلك بدون حراك في جسمه أو أطرافه (٨).

٦ - وجود ارتفاع ملحوظ في معدلات: سرعتي النبض والتنفس، ضغط الدم، نسبة استهلاك الأوكسجين، درجة حرارة الجسم والدماغ، وكمية سيلان الدم في القشرة الدماغية.

٧ - حصول ارتفاع في عتبة الإفاقة من النوم، أي أن النائم لا يستيقظ من رقاذه إلا بصعوبة كبيرة عند المقارنة مع استيقاظه من النوم غير الحالم، رغم أن الحركة الدماغية تكون أقرب إلى حالتها أثناء اليقظة!



وقد عبر الدكتور على كمال عن المفارقة التي وقع فيها علماء النوم والأحلام لتبرير ما ذكرناه أعلاه من ظواهر متناقضة خير تعبير في أبوابه الموصدة (٨) فقال: وهناك عدة اجتهادات لتفسير هذه المفارقات، والتي تجمع في آن واحد بين دلائل سطحية النوم ودلائل عمقه، ومن هذه التفسيرات أن النوم الحالم هو أقل عمقا، أما صعوبة إفاقة الحالم من نومه، فإنها لاترد إلى عمق نومه، أو إلى ارتفاع عقبة تحسسه بالإثارات الخارجية، وإنما لأنه لا يستوعب هذه الإثارات في أحلامه، ويدمجها بمحتوى أحلامه بصورة أو بأخرى. أما لماذا يكون التراخي العضلي في أقصى درجاته أثناء النوم الحالم، والذي له أن يدلل منطقيا على عمق النوم، فإن تفسيره لازل ممتعا، وهناك من يرى في هذه الظاهرة أثناء النوم الحالم بأنها وسيلة للمحافظة على الطاقة، بينما يرى آخرون بأنها من مخلفات نمو وتطور الكائنات الحية، والتي كانت تحس بأمان أعظم إذا ماظلت بدون حراك أثناء نومها؟

إذن نخلص مما تقدم بأن العلم المعاصر، رغم تقنياته التي فرضت وجوده على ساحة التبرير الموضوعي للظواهر، يفتقر في بعض الجوانب إلى فروض مقبولة لتعليلها، وأن صياغاتها للقوانين، لا يمكن أن تعلن استخراجها كعنصر من الأشياء، بل هي تركيب عقلاني، وهي رمز ونتاج لاستعدادنا لتبديل الزوايا التي ننظر منها إلى الثبات في العالم (١٠). وعليه فإن دراسة الظواهر الصاحبة لظاهرة النوم الحالم، في مختبرات العلم المعاصر، لاتعني فهم أسرارها الباطنة بل إلقاء الضوء على البيئة التي يبرز من بين جنباتها الحلم، وشتان بين الاثنين!

٥ - المنهج الإسلامي في معالجة فرضيات الأحلام:

يعتبر القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة المورد الأساس الذي يتكئ إليه المنهج الإسلامي في تأصيل فرضياته، وصياغة نظرياته لشتى جوانب الحياة.

ولقد وردت في القرآن الكريم حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية تبصرنا بجانب هام من عالم النوم والأحلام الذي أوصدت أبوابه، واكتنفته الغموض، ففي الموضوع الأول قال الله تعالى في كتابه العزيز (١١) «هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار» الآية، وقال تعالى في الموضوع الثاني (١٢) «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى...» الآية.

وفي هاتين الآيتين الكريميتين



إشارة واضحة إلى توفية النفس عند النوم، وولوجها مرحلة النوم الحالم في عالم برزخي - تنتقل الروح عند رقيها فيه - بين مراتب متفاوتة، ثم تعود ثانية إلى العالم الشهودي عند الاستيقاظ، لذا كان عندما يلجأ إلى فراشه صلى الله عليه وسلم يقول (١٣): «باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»، ويقول عند نهوضه صلى الله عليه وسلم من النوم « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور».

ولتوظيف اصطلاح «التوفية» بما يزيل العقبات التي تعترض تعليل مرحلة النوم الحالم، وتبديد سحابة الغموض التي تحيط به، سنعمد إلى صياغة فرض علمي جديد يفتح آفاقا جديدة أمام تجارب رائدة تهدف إلى تقديم تفسيرات مقنعة للنوم المفارق، لكي يفيد الفرض الجديد من التجارب، وينير الدرب أمام استنباط النتائج المثمرة منها، ينبغي:

١ - أن يكون واضحا، ومحددا ودقيقا، لاليس فيه ولا غموض، يسمح باستخراج نتائج يمكن اختبارها بالخبرة الحسية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

٢ - ألا يتعارض مع قانون طبيعى قد سلم بصدقه بصورة متواترة وغير متناقض مع قوانين الفكر

٣ - أن يكون قادرا على تفسير جميع الوقائع التي أخضعها للاختبار لالتفسير شريحة محددة منها معرضا عن جوانب أخرى تترايط مع تلك الشريحة ارتباطا جوهريا

المبعثرة إلى وقائع مفسرة تنضوى تحت نسق أحكم صياغة حدوده العلمية بدقة

٥-١ - الفرضية المقترحة لتعليل مرحلة النوم الحالم:

تتكئ الفرضية المقترحة إلى الحقيقة القرآنية التي أشارت بوضوح إلى توفية النفس في مرحلة النوم الحالم وتعاضدها الآثار النبوية الشريفة التي تدور حول نفس الموضوع لذا سنشرع بإلقاء الضوء على تفاصيل التوفية وما تحتمله من معان لغوية واصطلاحية تمهيدا لصياغة الفرضية المذكورة.

إن اصطلاح «التوفى» الوارد في القرآن الكريم يحمل عدة معان (١٤) وينتصب وراء كل معنى من هذه المعانى مذهب فى تفسير حقيقته فالوجه الأول للتوفى هو قبض الروح عن الجسد ومفارقتها له وقد ورد هذا المعنى فى سورة النساء «إن الذين توفاهم الملائكة الآية وفى سورة النحل» تتوفاهم الملائكة الآية وفى تنزيل السجدة «قل يتوفاكم ملك الموت» الآية (١٥)

وقد أخرج الإمام الدار قطنى حديثا يؤشر نحو تطابق توفية النوم مع الموت (١٦) من حديث جابر بن عبد الله قال «قال يارسول الله أنبأ أهل الجنة؟ قال لا النوم أخو الموت والجنة لاموت فيها» قال ابن زيد : النوم وفاة والموت وفاة وقد اعتبر أنصار هذا الوجه توفى الله عباده فى منامهم بالليل موتا أصغر إذ إن الأرواح تقبض عند النوم فتفارق الجسد مفارقة مؤقتة إلى أجل مسمى عند الله تعالى وأما الموت فهو التوفى الأكبر لأن الأرواح تفارق أجسادها مفارقة دون إرسال لحين البعث (١٧)

والوجه الثانى يرد بمعنى الرفع إلى السماء كما فى قوله تعالى لعيسى بن مريم عليه السلام «إنى متوفيك ورافعك إلى ...» الآية وفى سورة المائدة «فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» الآية (١٨) لذا فالأرواح المقبوضة بالنام تعرج فى عالم الرؤيا فتترقى كل منها إلى مرتبة تليق بكمالها.

ويحمل الوجه الثالث للتوفى

معنى قبض الحس فى النوم كما ورد فى قوله تعالى «وهو الذى يتوفاكم بالليل...» الآية (١٩) وهو مذهب الحبر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما إذا يستدل من قوله تعالى على استعارة التوفى من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة فى زوال إحساس الحواس الظاهرة والتمييز وبذلك فإن توفى الأنفس عند نومها هو إمساك لها عن التصرف فى الأجساد مع بقاء اتصال الأرواح بها (٢٠)

على ضوء ما نقل من أقوال تفسر معنى التوفية يمكن أن تصاغ الفرضية التالية:

«إن الظواهر المفارقة التي تصاحب مرحلة النوم الحالم Paradoxical Sleep يمكن أن تعزى إلى توفية النفس البشرية فى حدود عالم النوم الرحيب وتتألف التوفية من عدة مراحل

المرحلة الأولى تبدأ بقبض الأحاسيس عن التصرف فى أعضاء الجسد فينقطع ضوء الروح عن ظاهره دون باطنه

المرحلة الثانية وتتألف من مراتب روحانية لا يمكن حصرها لارتباط كل مرتبة من هذه المراتب بمتغيرات تنشأ عن طبيعة الرأى والمرئى فقد يقتصر التوفى على انحباسه فى باطن البدن بين أحاسيسه وآماله فيرى النائم فى منامه ما اخترن فى أعماق الذات (الشعور) أو تظهر خيالات طبيعية تنشأ عن تنبه النفس بأدائها فى ساحة البدن أو ترتقى فى عالم الأرواح فتلتقى بأرواح الأحياء والأموات فتتعارف وتذكر فى إطار مفردات النوم الحالم»

٥-٢ تبرير الفرضية المقترحة:

قد تبدو الفرضية المقترحة بعيدة عن الواقع العلمى بمعيار المشتغلين فى مضمار سيكولوجية الأحلام إلا أن سبر دلائلها بمعيار منصف يزيل عن كثير من مفردتها سحابة الشك بمصادقية موضوعيتها إذا ماقورنت بالفرضيات التي اقترحتها علماء هذا الشأن من بنات أفكارهم عند محاولة تبرير تناقض المفاهيم فى مرحلة النوم المفارق.

لذا سنحاول مفردات الفرضية عن طريق السبر والتقسيم مع اعتماد الحقائق الموضوعية التي توصل إليها العلم المعاصر فى رحلته الطويلة فى غياهب عالم النوم والأحلام.

١ - اقترحت الفرضية اصطلاح التوفية لتفسير النوم بجميع مراحلها وهذا الاصطلاح يتطابق موضوعيا فى دلالته ومحمولاته مع محمولات النوم وصفات النائم فالنائم تقبض أحاسيسه وتتوفى عن التصرف بظاهر الجسد وهذا لا يتكره المشتغلون فى سيكولوجية النوم والأحلام

٢- إن حدوث جملة من الظواهر المرافقة للنوم الحالم من: حركة العين السريعة REM والحركة الدماغية ونشاط عضلات الأذن الوسطى والارتخاء العضلي والتغيرات الفيزيولوجية الجسمية والتغيرات الكيميائية وتزامن هذه النشاطات مع بعضها البعض خلال هذه الفترة من التنوع يؤثر بوضوح بأن جميع هذه الظواهر ليست بالنشاطات العشوائية بل إنها أطراف متعددة لعملية واسعة ومتناسقة تسود البدن البشري كانعكاس لحصول ظاهرة تتناقض مع البيئة الفيزيولوجية للإنسان في فترة اليقظة. فإذا كان السؤال الذي يطرحه علم النفس عن هذه الظواهر هو ماهي أغراض هذه الظواهر؟ وما هو مدى وأهمية كل فعالية من هذه الفعاليات في تحقيقها؟ (٢١) وكانت أجابته على هذه المسألة بأنه مازال كل ذلك مما لم يتوفر العلم المعاصر على الوثوق من أمره حتى الآن..! فإننا بالمقابل نجيب بأن جميع هذه الظواهر هي انعكاس لظاهرة التوفى وولوج النائم إلى عالم برزخى جديد تختلف مفرداته وشبكة ارتباطاتها عما هي عليه في عالم اليقظة لذا تتحرك العين بسرعة ويزداد نشاط الدماغ وترتفع درجة حرارته ويصاحبها ارتفاع درجة حرارة الجسم لأن البيئة المحيطة بالنائم قد انقلبت رأساً على عقب! ٣- إن قبض الروح عن ظاهر البدن ينتج عنه ظاهرتان قد أشارت إليهما البحوث المعاصرة في ميدان الأحلام، (الأولى) الارتخاء العضلي الشديد بالمقارنة مع النوم غير الحالم أو أثناء اليقظة. وفي هذا الأمر دلالة قاطعة على وجود تغيير حاسم في مرحلة النوم الحالم ويبرر هذا الأمر لدينا بسبب التوفية، لذا يكون الارتخاء العضلي في أقصى درجاته لأن النفس قد توافها الله عن بدن النائم. (والثانية) ارتفاع عتبة الإفاقة في مرحلة النوم الحالم وكيف يستيقظ من توفت روحه كمن لم يلح هذه المرحلة والفارق بينهما ينجم عنه الفارق الملاحظ في عتبة الإفاقة. ٤- إن توفية النائم لاتعنى غياب الوعي بل توقف عن التصرف بالجوارح وولوج في عالم روحاني ذي أبعاد لا تقليدية وعليه وفق الفرضية المقترحة فإن الوعي لن يتضاءل في النوم عما هو عليه في فترة اليقظة وهذا مما تؤكدته النظريات الحديثة والتي تؤثر بوضوح نحو تقارب الحركة الدماغية أثناء اليقظة مع الحركة الدماغية في فترة النوم الحالم لأن البدن قد أغفلت حواسه واستيقظت روحه على تباشير صباح برزخى لنهاية لأطرافه الممتدة.

٦ - ملاحظات ختامية:

إذا كان الإنسان الغربي في عصرنا الراهن قد اختص بالعلم وأنه قد فرض وجوده على العالم باعتباره إنساناً تقنياً أولاً فهذا لايعنى أن مقومات المعرفة العلمية قد احتكرها العلم الذي أنشأه الغربيون صرحه فحسب فالعقل البشري لايمك إلا قوالب مهمتها تخثير الوقائع المنقولة إليه عن طريق صياغة فرضيات على ضوء الوقائع المشاهدة وإن هذه الفرضيات والنظريات لايمكن أن تستعمل إلا في حدود الموضوع الشخص وتصبح عاجزة تماماً إذا ما وجهت لتبرير موضوع مفارق في حدود التجربة الدينية والروحية. والعقل منذ أن صدع الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت بنظريته النقدية في كتابه الشهير نقد العقل المجرى (٢٢) أصبح أداة لاستعمل إلا في ميدان خاص هو حدود العالم الذي نعيشه مع استبعاد التجربة الميتافيزيقية (حسب اصطلاحه) عن دائرته والحاكما بدائرة الشئ بذاته الذي يقبع خارج حدود اهتماماته. إلا أن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو هل أنه لا يوجد نظام معرفي آخر، وله أدوات الخاصة في تبرير الوقائع المشاهدة والتي لاتقع في دائرة الظاهرة الحسية البحتة؟ أو هل يصح القول بالأحرى أن التجربة الدينية قد أضحت طلالاً لايقبه بفرضياته لأن أداة فهمها غير موجودة بين مفردات العلم المعاصر؟ وإذا تتبعنا تاريخ المعرفة البشرية حتى نهايته أدركنا بأن العلم المعاصر لم يلب وجود التجربة الدينية ولكنه ألقى معقوليتها بمعياره التجريبي بيد أن مكانتها لإزالت في المستوى الذي يلائم طبيعتها وهو مستوى الاعتقاد لأن العلم أدوات العقل الذي يسير ويقسم لكي يصنع الأشياء الخارجية معقوليتها وحدود فهمها أما التجربة الدينية فأداتها الوجدان الذي يؤمن بالنعى الإلهي المنقول كحقيقة غير قابلة للنقض حتى ولو ثبت عن الفهم البشري القاصر ودون الحاجة إلى متواليات العلة والمعلول، إلا أن هذا لايعنى إقصاء العقل عن دائرتها بل يعتضد العلم بنسج الروح التي تعمق فهمه للوقائع وما يكمن وراء ظاهرها الشاسع ذلك لأن تطابق العقل مع النظام النظري الذي صنع وفقاً لفرضياته يجعله يقبل بخداة نفسه لأنه قد قبل بإبداع نشاط فهمه للوقائع داخل الحدود التي اصطنعها على ضوء تجاربه التي تقصر عن احتواء جميع الحوادث التي تحيط بالواقعة فيصنع نفسه بتطابق الذات والموضوع ليتولد لديه الإحساس باليقين وهو يقين مخادع ونسبي.

إن ينبغي أن نضع نصب أعيننا دائماً بأن مورد العلم المعاصر يقتصر على التجربة وهي الينبوع الوحيد الذي ينهل منها حقائقه لذا فإن كل ماخرج عن حدودها لا يحمل أية خصيصية تشد العلماء للتفكير به أو إدراجه في قائمة اهتماماتهم بالمقابل فإن قوانين الطبيعة إنما هي نتاج تقطيع وتفتيت المادة (٢٣) كما قال أدوار لوروا وأن كل قانون لايجرؤ أن يعلن أنه عنصر مستخرج من الأشياء بل يعلن أنه من تركيب العقل المنشغل بالتقطيع المميز لوجهة نظره ليس إلا. لذا إننا ندعو نحو استثمار الخطاب الديني واعتماده كخطاب معرفي يحمل بين طياته مايعنى العلم المعاصر بأفاق جديدة لفهم بعض الوقائع بصورة مباشرة من خلال معالجتها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أو بصورة غير مباشرة من خلال المنهج الذي عولجت من خلاله الوقائع المذكورة في الكتاب والسنة ونكون بذلك قد أغنيا معارفنا بمصدر جديد يزيل الغموض عما أعجم علينا من فهم بعض الوقائع التي نحاول فهمها ولتقتصر على حدود التجربة الضيقة وعلى هذا فإن ماذكرناه بخصوص تبرير مايبلاظ في مرحلة النوم المفارق يفتح أمام المشتغلين في ميدانه آفاقاً جديدة لدراسته على ضوء ماحمل به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فنختبر كل مرحلة من مراحل علمه ضوء ماحمله اصطلاح التوفية فنعمد إلى التمييز بين الظواهر المصاحبة لمحتوى المنام وهل أن هذه الظواهر تتزامن من الحلم الذي يكون محتواه سجيناً في حدود معاناة البدن أن أنها تقتصر على الرؤى التي ترقى فيها الروح إلى عوالم أكثر سمواً وبعداً عن حديث النفس وأحاسيس البدن؟ كذلك هناك مجالات جديدة أمام دراسة نشاط الحركة الدماغية لإيجاد الحد الفاصل بين النوم كظاهرة فيزيولوجية بحتة وبين مرحلة التوفية وغيرها كثير... بيد أننا نود أن نلفت الانتباه نحو حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية هي أن اقتراحنا لهذه التجارب لايعنى وجود ارتباط جوهري بين اعتقاداتنا التي ابتنت على ماحملته النصوص الشرعية وبين ما ستثمر عنه التجارب التي اقترحت أنفاً لأن لغة العلم مهما دقت عباراتها وعمق محتواها وديمعتها التجارب والأرقام فإنها قد تزيج اللثام عن بعض محمولات ألفاظ النص فتخصص بعض مفرداته أو تعميمها إلا أنها في النهاية لن ترق إلى مناقضته أو الغائه

٧. الهوامش والإحالات:

- (١) الفيلسوف والعلم ١٨٤/ الاستقراء والمنهج العلمي، ١٤٤٠
 - (٢) مدخل جديد إلى الفلسفة ٧٢
 - (٣) نفس المرجع
 - (٤) المنطق ومناهج البحث العلمي ٢٨٥/ الاستقراء والمنهج العلمي ٤٧
 - (٥) نشأة الفلسفة العلمية ١٨
 - (٦) باب النوم وباب الأحلام ٣٢٦
 - (٧) نفس المرجع ١٣٣
 - (٨) نفس المرجع ٨٨- ٨٨
 - (٩) نفس المرجع ١٠٢- ١٠٢
 - (١٠) مدخل جديد للفلسفة ٨٢
 - (١١) سورة آل عمران ٦٠
 - (١٢) سورة الزمر ٤٠
 - (١٣) فتح الباري ١٢: /صحيح مسلم ٤: ٤٧٨
 - (١٤) المدخل إلى الرؤيا وتعبيرها ٣١-٢٧:
 - (١٥) سورة النساء ٨٧/ سورة النحل ٢٨/ سورة السجدة: ١١
 - (١٦) المدخل إلى الرؤيا وتعبيرها: ٢٨
 - (١٧) نفس المرجع
 - (١٨) سورة آل عمران ٥٥/ سورة المائدة ١١٧
 - (١٩) سورة آل عمران: ٦٠
 - (٢٠) المدخل إلى الرؤيا وتعبيرها: ٣٠
 - (٢١) باب النوم وباب الأحلام ١٣٤
 - (٢٢) استراتيجية التسمية ٤٤
 - (٢٣) مدخل جديد إلى الفلسفة ٨٢
- ٨ - المراجع
- (١) استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية لمطاع صفدى - الطبعة الأولى ١٩٨٦، مركز الإنماء القومي بيروت
 - (٢) الاستقراء والمنهج العلمي للدكتور محمود زيدان - الطبعة الرابعة ١٩٨٠ مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، القاهرة
 - (٣) باب النوم وباب الأحلام للدكتور علي كمال، الطبعة الثانية ١٩٩٠ دار واسط للنشر بغداد
 - (٤) الفيلسوف والعلم لجون كيمنى ترجمة الدكتور أمين شريف - الطبعة الأولى ١٩٦٤ المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت
 - (٥) المدخل إلى الرؤيا وتعبيرها لحسن مظفر الرزق - الطبعة الأولى ١٩٩٠، شركة بيت الموصل، الموصل
 - (٦) مدخل جديد إلى الفلسفة للدكتور عبد الرحمن بدوي - الطبعة الأولى ١٩٧٤، وكالة المطبوعات الكويت
 - (٧) المنطق ومناهج البحث العلمي للدكتور علي عبد المعطي محمد - الطبعة الأولى ١٩٧٦، دار الجامعات المصرية القاهرة.